التمظهر المحاكاتي

بقلم

أحمد عبد السلام البقالي

obeikandl.com

obeikandl.com

لا حديثَ لسكانِ المدينةِ الشاطئيَّةِ الزاهرةِ إلا عنْ وفاةِ أديبِها وشاعرِها المحليِّ الكبيرِ (عبدِالعزيز المصوريِّ).

ومعقولٌ أن ينشغلَ مُتَأَدِّبُو المدينةِ ومثقفوها بوفاةِ شخصيَّةٍ ملأتْ عليهمْ حياتَهم قرابةَ السبعينَ سنة، وتركتْ طابعَها النقديَّ المتميزَ على الأجيالِ الصاعدةِ منهمْ منذَ الأربعينات. ولكنَّ الغريبَ في الأمرِ هو انشغالُ رجالِ القانونِ كذلكَ بوفاةِ هذا الرجلِ، وذلك ما جعلَ خبرَها يقفزُ من أعمدةِ الوفياتِ العاديَّةِ إلى صفحاتِ الجرائدِ الأولى!

فرغمَ أنه ماتَ بسكتةٍ قلبيَّةٍ عاديَّةٍ، وهو يحتسي قهوةَ صباحِه ويقرأُ الجرائدَ، فقد ادَّعتْ ابنتهُ (زكيَّة) أنه ماتَ مقتولاً، وأصرتْ على أنْ يرفعَ زوجُها المحامي قضيةً ضدَّ الجريدةِ التي كانتْ السببَ في سكوتِ قلبه!

قالتْ (زكيةُ) لزوجِها إنها كانتْ حاضرةً ساعةَ الاعتداءِ والقتلِ الذي نَفَّذَتْه الصحيفةُ في أبيها العزيز:

«كان يتَصفَّحها ويقرأ العناوين، إلى أن وقعتْ عيْناه على هذا العنوان.»

وفتحت الجريدةَ في وجهِ زوجها ليقرأَ: «مُسَاءَلةُ المتنِ الإبداعيِّ في التَّمظهُرِ المحاكاتي أو التجريبي الحداثي.»

وقرأ المحامي الشابُّ العنوانَ مرتين دونَ أن يبدوَ عليه أنه فهمَ منه شيئًا:

– ماذا يعني هذا الكلامُ؟!

– لو كان يعني شيئًا ما ماتَ والدي الحبيب! أنتَ تعرفُ أنه كان أديبًا رقيقًا، رفيعَ الذوق، رهيفَ الحسِّ الإبداعيِّ والنقديِّ، شديدِ الانفعالِ مع النصوصِ الأدبيَّةِ الجميلة! ورغمَ رقةِ شعورِه، فقد كان يسْتشيط غضبًا، ويتحوَّلُ إلى بركانٍ هادر حين يُعرضُ عليه نصٌّ رديءٌ لدرجةِ أن بعضَ اللؤماءِ من معارفِه كانوا يقُصُّون من صفحاتِ النَّاشئين نصوصًا، ويقرؤونها بمحضرِه للتفرجِ على ثوراتِه العنيفةِ وحركاتِه المسرحيَّةِ، وهو يختطفُ النصوصَ من أيديهم ويمزقُها ويلقيها في سلةِ المهملات، ويكيلُ لهم الشتائمَ، أو يمسكُ بتلابيبهم مهدداً ومتوعداً.

«وقَبْل أن يصابَ بأول أزمةٍ قلبيَّة، كنا نقبلُ ردودَ فعله

العنيفةِ على أنها انفجاراتٌ صحيَّةٌ لرجلٍ شديدِ الحساسيَّةِ، عصبيِّ المزاجِ؛ ولكنْ بعدَ أن نصحَهُ الأطباءَ بتجنُّبِ الانفعالِ، صرنا نتفادى كلَّ ما يسببُ انزعاجَه، وأوصينا أصدقاءَه وجلساءَه بالكفِّ عن ممازحتِه بالطريقةِ القديمةِ.

«حتى جاءَ اليومُ المنحوسُ! ففي ذلك الصباحِ الجميلِ الهادئِ جئتُه بقهوتِه، فوجدتُه يتصفحُ الجريدةَ «وفجأةً وقعتْ عيناهُ على هذا العنوانِ الخبيثِ، فامْتُقِعَ وجهُهُ وأخذتْ يداه ترتعشانِ بعنفٍ، وكأنَّ تياراً كهربائيًا كانَ يجري في بدنه.

وخفتُ عليه، فأخذتُ أسألُه:

– أبي، مالكَ؟ ماذا أصابَكَ؟!

وحينَ استطاعَ أن يتكلمَ، وجَّهَ إليَّ الصفحةِ التي أثارتْ انفعالَه قائلاً:

– انظري، يا زكيةُ! انظري إلى ما صارَ الناسُ يكتبون!

ثم حجبَ عنِّي الجريدةَ، حينَ حاولتُ قراءةَ العنوانِ، وقال بلهفةٍ:

– لا. لا تنظري! إنني أخافُ عليكِ من هذا السخفِ

العظيمِ. إنَّني أَرْبأُ بذوقِك الأنثويِّ الرفيعِ عَنْ قراءةِ هذا الخبثِ «هذا الزبل» هذا...

«وتوقفَ عن الكلامُ وانفتحَ فمُه وجحظتْ عيناهُ وكفَّ عن التنفُّس، فأسرعتُ إليه حائرةً لا أدري ماذا أفعلُ، وأخذتُ الجريدةَ منه وأسندتُه إلى صدري، وأنا أصيحُ بأمي وإخوتي ليصعدوا إلينا.

«ولم تكدْ والدتي تصلُ لاهثةً جزعةً، حتى كان حبيبي والدي العزيز قد فارقَ الحياةَ.»

وانخرطتْ في نحيب مرٍّ، فطوَّقها زوجها بذراعيه، وأخذَ يُهدِّئُ من روعِها، حتى هدأتْ.

* * *

حاولَ الزوجُ بعد ذلك أن يثنيَها عن رفعِ الدعوى ضد الجريدةِ، أو الكاتبِ الرديءِ، فلم تقتنعْ. وقالتْ له إنهُ إذا لمْ يفعلْ فستذهبُ إلى محامٍ غيره!

واضطرَّ الزوجُ المسكينُ إلى استشارةِ زملائِه من كبارِ المحامين حولَ ما إذا كانَ يمكنُ رفعُ قضيةٍ على كاتبٍ رديءٍ واتهامِه بالقتل!

وفوجئَ بانقسامِ المحامين إلى قسمين؛ قسمٌ يُبَرِّئُ الكاتبَ، وقسمٌ يُدينُه.

واحتدمَ الجدالُ في الأنديةِ والمقاهي والمجالسِ الخاصةِ وتدخلُ فيه القضاةُ وأستاذةُ القانون. وكان الذين يُبرِّئون ساحةَ الكاتبِ يوجهونَ التهمةَ إلى رئيسِ تحريرِ الجريدةِ «بالقتل غير العمد». وبرَّأ بعضُهم الكاتبَ قبلَ رؤيةِ العنوانِ، ولكنْ بمجردِ ما وقعتْ عيونهم عليه غيَّروا رأيَهم وانضموا إلى صفوفِ المُدينين!

* * *

ووصلَ الخبرُ إلى رئيسِ تحريرِ الجريدةِ فَذُعِرَ، وأنحى باللائمةِ على محررِ الصفحةِ الأدبيةِ، وطلبَ منه الاتصالَ بالكاتبِ واستدعاءهَ فوراً دونَ أن يخبرهَ بالسببِ حتى لا يلوذَ هذا بالفرار.

* * *

ودخل الأديبُ المبتدئُ وَجِلاً على رئيس التحرير في برجه العاجي، وهو يعتقد أنه جيء به ليُشْكَرَ على مساهمتِه

الطلائعيةِ «الحداثية» المستقبليَّة، وأسلوبهِ الجديدِ الذي يتجنبُ، بحذرٍ شديدٍ، الوقوعَ في مستنقعِ «الحكي المفهوم» الآسن وأساليب الأجيالِ السابقةِ، و«تسطيحاتها» البالية!

وبمجرَّد ما قدَّمه محررُ الصفحةِ الأدبيَّةِ إلى رئيسُ التحريرِ العجوزِ أمسك بتلابيبهِ وأخذَ يخضخضه ويدفعُه ويجذبُه ويصيحُ فيه:

– من أنتَ؟ بل ماذا أنتَ؟! كيفَ يمكنُ لبني آدم أنْ يكتبَ بذلك الأسلوبِ المريضِ الذي يقتلُ الناس؟!

وتناولَ الجريدةَ وقرأ له:

– انظر... ما معنى هذا؟ «مُسَاءَلَةُ المتنِ الإبداعيِّ في التمظهرِ المحاكاتي أو التجريبي الحداثي»! يا إلهي! ما هذا الزبل؟! ما هذه الركاكة؟! لو كنتُ أنا قرأتُ هذا الويلَ على قهوةِ صباحي، وعلى حينِ غفلةٍ، لتوقَّف قلبي أنا كذلك!

ثم ألْصَقَه بالحائطِ وأخذَ يصيحُ في وجهه:

– من؟ قل لي: من أرسلكَ إلينا؟ من دسَّك على جريدتنا؟ من سلَّطك علينا لتخريبِ مؤسستنا؟ أكيداً الحزبُ المعارضُ وراءَ هذه المؤامرة!

وحاولَ محرِّرُ الصفحةِ الكلامَ فنهرَه رئيسُ التحريرِ قائلاً:

– اخرس أنتَ! أنتَ شريكُهُ في المؤامرةِ والجريمةِ! وَوَقْعَتُك معي سوداء! انتظرْ دورَك أنت الآخر! سأُلقي بكُمَا في ستين داهية!

وحين علا صياحُ رئيسِ التحريرِ، خافَ عليه أعضاءُ هيئة التحرير، فاجتمعوا على بابه وقرروا الدخولَ لتهدئتهِ قبل أن يُصابَ بسوء!

ولم يترك المحررُ العجوزُ تلابيبَ الكاتبِ الناشئِ إلا بعدَ أن أحسَّ بخفقانٍ غير عادي في قلبهِ، وبعد أن تَعَهَّدَ الكاتب بالاعتذارِ شخصيًّا لعائلة ضحيتهِ، وبألا يعود إلى الكتابة أبدًا!

obeikandl.com